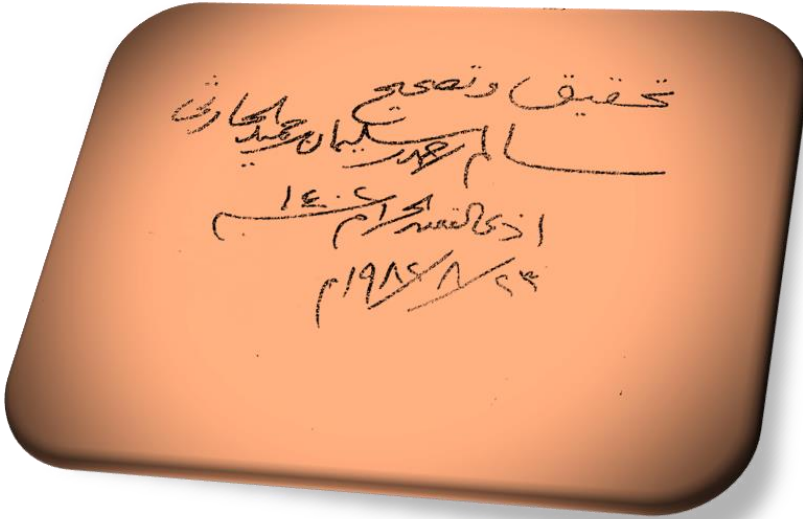


نَاقِفُ حَنْظَل  
كلماتٌ في تأبين الأعلام (٤)

مُحِبُّونَ  
الإصدار الثامن والثلاثون

شيخ التراث العُماني  
سالم بن حمد الحارثي



بقلم

سُلْطَانُ بْنُ مُبَارَكِ بْنِ حَمْدِ الشَّيْبَانِيِّ

سلسلة: نَاقِفُ حُنْظَل؛ كلماتٌ في تأبين الأعلام  
الحلقة الرابعة  
شيخُ التراث العُماني سالم بن حمد الحارثي

جميع الحقوق محفوظة  
الطبعة الرقمية الأولى  
صفر ١٤٤٤هـ / سبتمبر (أيلول) ٢٠٢٢م

محبوب

محبوب للنشر الرقمي  
مسقط/ سلطنة عُمان  
البريد الإلكتروني:  
mahboub.pd@gmail.com

شَيْخُ التَّرَاثِ العُمَانِي  
سَالِمُ بنِ حَمْدِ الحَارِثِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،  
 وعلى آله وصحبه ومن والاه

## • سالم بن حمد الحارثي<sup>(١)</sup>:

زُرْتُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ صَبِيحَةَ الْجُمُعَةِ ٦ شَعْبَانَ ١٤٢١هـ/ ٣ نَوْفَمْبَرٍ ٢٠٠٠م فِي مَنَزِلِهِ الْوَاقِعِ خَلْفَ مَجْلِسِ (بَيْتِ الْبَرَجِ) فِي بَلَدَةِ الْمُضَيَّرِبِ مِنْ شَرْقِيَّةِ عُمَّانِ. كَانَ سَمَحًا بِشَوْشًا مُتَوَاضِعًا، حَتَّى لَقَدْ خَجَلْتُ مِنْ حَسَنِ تَعَامُلِهِ مَعْنَا. زُرْتُهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ بَعْدَهَا فَكُنْتُ أَجِدُهُ عَلَى الْحَالِ نَفْسَهَا: كَتَبَ وَمَخْطُوطَاتٌ وَأَوْرَاقٌ، تَتَحَلَّقُ حَوْلَ شَيْخٍ وَقُورٍ؛ ذِي عِمَامَةٍ بِيضَاءٍ مَطْوِيَّةٍ إِلَى الْأَعْلَى، وَلِحْيَةٍ كَثَّةٍ مَهِيْبَةٍ، كَأَنَّمَا اجْتَمَعَتْ فِي مَلَاحِجِهِ أَصَالَةُ التَّرَاثِ الْعُمَانِيِّ وَعِرَاقَتِهِ.

<sup>(١)</sup> أصل هذه المادة: كلمة كتبها للمشاركة في الملف المخصص لتأبين الشيخ سالم بن حمد الحارثي؛ بمجلة (الواحة) العُمانية، السنة الثانية، العدد السابع عشر: جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/ يوليو ٢٠٠٦م. ص ٢٢-٢٣. وأجريت عليها هنا بعض التعديلات والزيادات. وأصل الكلمة بعنوان: (بيننا وبين الشيخ سالم بن حمد الحارثي.. سنوات كفاح). وحقُّ الشيخ أن يُكتب عنه سفرٌ حافل.

كنتُ أسأله فيجيبني دون تردُّد، ولا يبالي أن يدخل مرة تلو المرة إلى مكتبته ليستخرج من نفائسها ما يؤيد جوابه ويُطفئ غليله وغليل سائله، وربما تحرَّك فضولي إذا رأيتُ بين يديه وثيقةً مهمَّةً يقرأها، فلا أكاد أطلبها حتى يعطيني نسخة منها، وما خرجتُ يوماً من عنده خالي الوفاض.

أراني مرةً ختِّماً عُمانياً على ظهر مخطوطٍ عنده؛ مؤرَّخاً في القرن العاشر الهجري، وقال: هذا مؤشِّرٌ حضاريٌّ لا بدُّ أن يُعنى به. كانت تستهويه مثل هذه الفوائد الشوارد، وتشدُّ انتباهه، فيجمعها ويدوِّنها، ويُخرج من بطون المخطوطات ما انمَحَى خطُّه وصعبت قراءته، فيعيد نسخه خشية ذهابه، وربما استعار مخطوطاً من هذه المكتبة أو تلك ليقارن به مخطوطاته بُغية تصحيحها، ومن تأمَّل مكتبته قلَّما يجِدُ مخطوطاً فيها لم يُسَطَّر عليه شيئاً من تعليقاته النفيسة.

إنها صحبة طويلة مع الكتب، وخبرة عميقةٌ بحباياها وخفاياها، ولَهْفٌ شديد إلى تتبعها واقتناص طرائدها، لا يُعبِّرُ عنه مثل قوله لي ذات مرة: أنا لا أعيش دون مخطوطاتي! وتأمَّل كيف ينظر إلى مخطوطاته حين يقول في بعض كتاباته: «حتى إذا قلتُ إنها جوهرٌ عينيّ فغيرُ مُبالغ!».

سألته عن شعاره في الحياة، فقال:

وَإِنَّمَا بِوَحْدَتِي أُنِسْتُ      وَقَعَرَ بَيْتِي عَنْهُمْ لَزِمْتُ  
فَزَادَ أُنْسِي وَنَمَا السُّرُورُ      بَلْ زَالَ بَانْفِرَادِي الْمَحْدُورُ

تلك كانت خلاصة لقاءاتي معه في سطور موجزة، ربّما تُوجِزُ في الوقت ذاته معالمَ شخصية الشيخ «سالم بن حمّد بن سليمان الحارثي» وملامح مسيرته وعطاءه، التي بدأت يوم الرابع من ذي القعدة ١٣٥١هـ / ٢٨ فبراير ١٩٣٣م، ولمّ تنته بغياب شخصه الطاهر ظُهرَ يوم الأحد ٢ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ / ٣٠ إبريل ٢٠٠٦م، بل تَظَلُّ بإذن المولى نبراسًا للأجيال الحاضرة واللاحقة.

وإذا تحدّثنا عن الأجيال فإنني أكتب اليوم عما هو بيننا وبين الشيخ سالم الحارثي، أو بعبارة أدقّ: عمّا هو بين جيلنا وجيل الشيخ سالم الحارثي.



بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمَدِ الْحَارِثِيِّ عَصْرٌ يَحُلُو لِلْبَعْضِ أَنْ يُسَمِّيَهُ عَصْرَ الْأوراقِ الصَفراءِ، يوم كانت المخطوطاتُ تَصْنَعُ عقولَ الرجالِ، قبل أن تتحوّل إلى تُحْفٍ فنية تُزَيِّنُ بِهَا الرُّفوفَ والخزائن. يومَ كان الطالبُ يفتح عينيه على كُتّاب القرية، يدرس فيه القرآن مع المعلّم، يتلقاه شفاهاً من لسانه كلمةً كلمةً، أو يكتب وراءه على لوحه حرفاً بحرفٍ. يوم كانت عيونُ الأطفال لا تكتحلُ بنسخةٍ مكتوبة من المصحف إلا مَنْ كان محظوظًا منهم. وبعد ختم القرآن يدرس التلميذ على شيخٍ مُتَوَنِّهاً علميةً قد يحفظها كلها دون أن يطلع على نصِّ مكتوب لأحدها، وربّما قرأ على شيخه مئاتِ (الأوراقِ الصَفراءِ) من مُجلّداتِ الأصول والفقهِ والأدبِ قراءةً هي الأولى والأخيرة، ثمّ لا تقع عينُه عليها بعد ذلك.

دارت الأيام، وصرنا نسمع القرآن عبر الأشرطة السمعية، وأقراص الكمبيوتر، وأثير الإذاعة والتلفاز، ونقرؤه من صفحاتٍ فاخرة مذهبة، تتزين بها مكاتبنا ومجالسنا، أمّا الكُتُب فالحصول عليها كالحصول على الماء، وربما وَجَدَ طالبُ العلم مُرادَه منها بِنَقْرَةٍ واحدة على الإنترنت، بل ربّما اضطرَّ على سريره ووضع رأسه على وسادته الناعمة ليُقَلِّبَ عشرات الكتب المحفوظة في هاتفه!



بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ الْحَارِثِيِّ عَصْرٌ يُسَمَّى عَصْرَ النَّسْخِ، كان فيه ناسخُ الكتب يُحَضَّرُ الدَّوَاةَ والمداد والأقلام، ويجلس ليلاً على ضوء السراج القديم، يَكْتُبُ العلمَ المفيد النافع. إنَّها مَشَاهِدٌ حَيَّةٌ من أيام الماضي، تتخللها نفحاتٌ عطرة من عبق التاريخ، تربطه بتراث الأجداد قلباً وقالباً، وتجعله يعيش لحظاتٍ عاش الأولون مثلها، فكأنما هو حلقةٌ في سلسلة واحدة، تَسْلُكُ الدربَ نفسه، وتقتفي الخُطى ذاتها.

لقد أدرك الشيخُ ذلك وعائشه عن قربٍ، وجلس على كرسي النَّسْخِ الذي جلس عليه مَنْ سبقه، واستشعر جلالَةَ التراث وعظَمَتَهُ ومكانته، والجهد الذي بَدَلَهُ الآباء ليصل إلى الأبناء. وَجَدْتُهُ مرَّةً ينسخ كتاباً مطبوعاً، فرأى عَليَّ عَلاماتِ الاستغراب بادِيَةً. فقال: هكذا تَعَلَّمْتُ أن أعرف قيمته. قلتُ: وَلَى زمان النَّسْخِ. قال: عِنْدَكُم، أمّا أنا فلا يقطعني عنه إلا أن

تكلّ يدي. وكتبَ مرّةً في بعض رسائله: «وقد نسختُ كثيراً بيدي حتى فقدتُ غالب بصري».

ولقد كانت أكثرُ مطالعاته على هذا النحو، يَنسَخُ ويقرأ في آنٍ، حتى خَبرَ خُطوطَ النُّسَاحِ والعلماء فكان يُميّزُ بينها كما يُميّزُ بين أبنائه وأقاربه!



بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ الْحَارِثِيِّ عَصْرُ الطَّبَاعَةِ الْقَدِيمَةِ، يَوْمَ لَمْ تَكُنْ فِي عُمانَ مطابعٌ ودورٌ نَشْرٍ، ويوم أن كانت الطباعة عُمَلَةً نادرةً صعبةً لا ينتفعُ بها إلا القلّةُ القليلة، قبل أن تصبح الآن سلعةً تجارية مرهجة يتعارك فيها الأقرنُ والأجلحُ.

لقد بذل الشيخ جهده في انتقاء مُهَمَّاتِ الكُتُبِ التراثية، ثم اتصل بِمَنْ يعرفه من الأعلام المُحَقِّقين لمراجعتها وضبطها، ثم وجَّهها إلى دُورِ النشر في الشام ومصر لطباعتها وتوزيعها، وكانت له رحلاتٌ عديدة في هذا الإطار.

ولمّا ظهرت وزارةُ التراث والثقافة إلى الوجود، وأعلنتُ مُبادرتَها إلى إخراج كتب التراث كان الشيخُ من أقدم المسهمين في نَهْضَتِها والدافعين لحركتها، فراجع عشرات الكتب، وتَضَلَّعَ بِمُهَمَّةِ العرض والتصحيح، وتَصَدَّدَتْ هِمَّتُهُ لِكُبْرِيَّاتِ الموسوعات العلمية العُمانية كبيان الشرع والمصنف والضياء ومنهج الطالبين، وما عداها كثيراً من المصنفات ذوات الجزء والجزأين والثلاثة.



واليوم تُفَرِّزُ لنا المطابع من (خلائطها المتطورة) كتبًا لا حصرَ لها في قالبٍ ظاهري جميل، وتَبْرُزُ بين الفينة والفينة في ساحة التراث أسماءَ مُحَقِّقين؛ لعلَّ أولَ كلمةٍ يُتَقَنُونَهَا هي الانتقادُ على جهودِ مَنْ سَبَقَ. وهي في الوقت ذاته أسهلُ كَلِمَة!



بَيْنَنَا وَيِنَّ الشَّيْخَ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ الْحَارِثِيِّ عَصْرُ الدِّرَاسَاتِ الْجَامِعِيَّةِ الَّذِي مَا كَانَ لِلْعُمَانِيِّينَ نَصِيبٌ وَافِرٌ فِيهِ مِنْذِ ثَلَاثَةِ عُقُودٍ، أَمَّا الْيَوْمُ فَقَدْ حَطَبَ فِي حَبْلِهِ حُطَّابُ اللَّيْلِ وَحُطَّابُ النَّهَارِ، تَحَتَّ شَعَارُ الدِّرَاسَاتِ الْعَلِيَا. لَمْ يُدَلِّ الشَّيْخُ سَالِمٌ بِدَلْوِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، لَكِنَّهُ كَانَ مَقْصِدًا لِلدَّرَاسِينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّهَادَاتِ بِمُخْتَلِفِ مَسْتَوِيَاتِهَا، وَمَقْصِدًا لِلْبَاحِثِينَ عَامَةً، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِهِ، وَيَفْتَحُ لَهُمْ بِمِفْتَاحِ خَبْرَتِهِ وَتَجْرِبَتِهِ الطَّوِيلَةِ بَابَ التَّرَاثِ الْوَاسِعِ. وَهُوَ كَمَا عَهْدَتُهُ وَعَهْدُهُ كُلُّ قَاصِدٍ لَهُ مَا كَانَ يَرِدُّ بَاحِثًا قَدْرَ اسْتِطَاعَتِهِ، يُجِيبُهُ شَفَاهَا أَوْ كِتَابَةً أَوْ يَرشُدُهُ إِلَى مَصَادِرِهِ أَوْ يَمْنَحُهُ مِنْ كُنُوزِ التَّرَاثِ مَا يَبْتَغِيهِ.

وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَنْ دَقَّ بَابَ الشَّيْخِ سَالِمِ الْحَارِثِيِّ طَالِبًا الْاسْتِفَادَةَ فِي دِرَاسَةِ عِلْمِيَّةٍ جَامِعِيَّةٍ هُوَ الدُّكْتُورُ اللَّيْبِيُّ التُّفُوسِيُّ عَمْرُو خَلِيفَةُ النَّامِيِّ؛ الَّذِي أَعَدَّ أَطْرُوحَةً قِيَمَةً يَعْزُّ وَجُودُ نَظِيرِهَا الْيَوْمَ، وَقَدَّمَهَا بِجَامِعَةِ كَمْبَرْدِجِ فِي بَرِيطَانِيَا أَثْنَاءَ فِتْرَةٍ دِرَاسَتِهِ بِهَا بَيْنَ سَنَتَيْ ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م - ١٣٩١هـ /

١٩٧١م، ونال بِهَا درجة الدكتوراه في الفلسفة والدراسات العربية والإسلامية.

وهي أطروحة باللغة الإنجليزية عنونها: «تطور الفكر الإباضي ودراسة نظام الولاية والبراءة عند الإباضية» طُبِعَتْ مترجمةً إلى العربية مؤخراً، ونقرأ في فاتحتها كلمة شكر للشيخ سالم بن حمد الحارثي على ما قدّمه للباحث من مخطوطات عُمانية ثَمينة أفادته في دراسته، ولو قلبنا صفحات الأطروحة لوجدنا إشاراتٍ عديدة إلى الشيخ سالم كلما استفاد النامي من إحدى مخطوطاته، بل تأثر النامي به في بعض آرائه العلمية فتابعه عليها.

ولقد ظل الشيخ سالم الحارثي يُثني على النامي ويعتزّ بِمَا قدّمه لَهُ من معلوماتٍ ومخطوطات، ثم زادت الرابطة بينهما بعد تلاقيهما عقب رجوع النامي إلى بلاده مكملًا دراسته. ومِنْ عَجيب الاتفاق أن تكون للرجلين غايةً مشتركةً وتوجّهً واحدًا، جَسَداه في دراستين تشابَهتا في المضمون إلى حدّ كبير، وإن اختلفتا في المنهج والأسلوب: دراسة النامي بالإنجليزية المشار إليها آنفًا، وقد استفاد منها كلُّ ناطقٍ بالإنجليزية من مستشرقين وغيرهم ممن يبحث في مجالها. ودراسة الشيخ الحارثي الممثّلة في كتابه الرائع (العقود الفضية) الذي استفاد منه كلُّ باحثٍ بالعربية من عمان وخارجها.



بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ الْحَارِثِيِّ سِنَوَاتُ كِفَاحٍ؛ رَبَّمَا نَسِيَهَا  
 الشَّيْخُ نَفْسُهُ، أَوْ تَجَاهَلَهَا فَلَا يَذْكُرُهَا وَلَا يَتَفَاخَرُ بِهَا أَمَامَ غَيْرِهِ، وَهُوَ فِي  
 الْحَالِينَ مَعْدُورٌ. أَمَّا فِي الْأَوَّلَى فَإِنَّهُ يَرَى فِي شَبَابِ الْجَمِيلِ الْحَاضِرِ صَحْوَةً  
 مَبَارَكَةً تُنْسِيهِ قَسْوَةَ الْأَيَّامِ، وَتَدْعُوهُ لِلْفَخْرِ وَالْاعْتِزَالِ. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَمَرَدُّهَا  
 إِلَى سِمَةِ عَرَفْنَاهَا فِي أَشْيَاخِنَا لَا تَنْفَكُ عَنْهُمْ، أَلَا وَهِيَ التَّوَاضُعُ.

وَإِذَا كَانَ الْعِذْرُ حَاصِلًا لَهُ فِي الْحَالِينَ فَإِنَّ النِّسْيَانَ وَالتَّجَاهَلَ إِذَا  
 صَدَرَ مِنَّا كَانَ جَرِيمَةً لَا تُعْتَفَرُ. كَيْفَ نَنسَى مَنْ عَلَّمَنَا أَنْ نَقِفَ وَقِفَةً  
 شَائِحَةً، وَنَحْطُو خُطْيً ثَابِتَةً؟ كَيْفَ نَنسَى مَنْ كَانَتْ عَمَّرَاتُهُ - إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ  
 - خَطْوَةً لَا بَدَّ مِنْهَا فِي طَرِيقِنَا إِلَى جَادَةِ الصَّوَابِ؟ أَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَدَّعِيَ حَمَلَ  
 أَمَانَةِ التَّرَاثِ وَنَحْنُ لَا نَقْدِرُ رَجَالًا حَمَلُوهَا عَلَى أَكْتَاْفِهِمْ وَوَضَعُوهَا نُصَبَ  
 أَعْيُنِهِمْ؟

أَمَّا التَّجَاهَلُ فَهُوَ تَلَبُّسٌ بِجَرِيمَةٍ مَعَ التَّعَمُّدِ وَالْإِصْرَارِ. وَإِذَا فَعَلْنَاهُ  
 فَلْيَنْتَظِرِ الْعَالَمُ أَوْلَادَ الْأَوْرَاقِ الْبِيضَاءِ، وَالطَّبْعَاتِ الْفَاخِرَةِ، وَالشَّهَادَاتِ  
 الْبَرَّاقَةِ، وَالْعُقُولِ الْفَارِغَةِ!<sup>(٢)</sup>

<sup>(٢)</sup> رحل الشيخ سالم وحمل معه أسراراً كثيرة عن حركة إحياء التراث العماني خاصة والإباضي عامة،  
 وليته وجد فراغاً لتوثيق تجربته الحافلة. قبل وفاته بسبعة أشهر وقليل بعثت له رسالة تتضمن تساؤلات  
 في هذا الإطار، وما زلتُ أو مل نفسي بالظفر بالجواب، لعله كتب شيئاً وما زال مندساً بين أوراقه!.



الشيخ سالم في وادي مزاب، وعلى يمينه الشيخ ناصر المرموري



الشيخ سالم مُسلِّمًا السلطان قابوس رسالةً داعيًا إياه فيها إلى طباعة جامع ابن جعفر



## حفيدة بلقيس

المرشحة لرئاسة اليمن  
تتحدث إلى «الواحة»

(جرس) صفحات جديدة  
على الساحة التبعية



## تركي

فاز بالبلبل الذهبي  
ويطرق باب النجومية

محمد الخضرا  
أحلم بتطوير  
الزّي العماني

مقال ساخن  
عن الدراما في عُمان

أسرار إتقان اللغة الإنجليزية

# AL-WAHA الواحة

500 بيعة



العدد السابع عشر - يوليو ٢٠٠٦

الطبعة الثانية

## ورحل العالم الشيخ سالم بن حمد الحارثي بعد ٧٣ عاماً من العطاء الموسوعي

أخوانه وزملاؤه وأبناءؤه وتلاميذته يتحدثون عنه

- ثروته العلمية وتفاصيل حياته في تناول الجميع
- كان في خدمة الناس من صلاة الفجر حتى العشاء
- دائرة عطائه اتسعت حتى خارج عُمان
- كان يطلب العلم حتى في أيامه الأخيرة



سلطان بن مبارك الشيباني

## سنوات كفاح



الراحل الباقي

❖❖❖  
بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ الْحَارِثِيِّ عَصْرٌ يَحُلُو لِلبَعْضِ أَنْ يُسَمِّيَهُ عَصْرَ الْأُورَاقِ الصَّفْرَاءِ، يَوْمَ كَانَتْ الْخَطُوطَاتُ تَصْنَعُ عَقُولَ الرِّجَالِ، قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى تَحْفٍ فَنِيَّةٍ تَزِينُ بِهَا الرَّفِيفَ وَالخِزَانِ. يَوْمَ كَانَ الطَّلَابُ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ عَلَى كِتَابِ الْقُرْآنِ. يَدْرُسُ فِيهِ الْقُرْآنَ مَعَ الْمُعَلِّمِ، يَلْتَقَاهُ شَفَاهًا مِنْ لِسَانِهِ كَلِمَةً أَوْ يَكْتُبُ وَرَاءَهُ عَلَى لَوْحَةٍ حَرْفًا بِحَرْفٍ. يَوْمَ كَانَتْ عَيُونُ الْأَطْفَالِ لَا تَكْتَحِلُ بِنَسْخَةٍ مَكْتُوبَةٍ مِنَ الْمُصْحَفِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُحَظَّوْطًا مِنْهُمْ، وَبَعْدَ خَتْمِ الْقُرْآنِ يَدْرُسُ التَّلْمِيزَ عَلَى شَيْخٍ مَتَوْنًا عِلْمِيَةً قَدْ يَخْطُطُهَا كَلِمًا دُونَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى نَصِّ مَكْتُوبٍ لِأَحَدِهِمْ، وَرَبَّمَا قَرَأَ عَلَى شَيْخِهِ مَثَلَاتِ (الْأُورَاقِ الصَّفْرَاءِ) مِنْ مَجْلَدَاتِ الْأَصُولِ وَالْفَقْهِ وَالْأَدَبِ قِرَاءَةً هِيَ الْأُولَى وَالْآخِرَةَ، ثُمَّ لَا تَقَعُ عَيْنُهُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ.

دارت الأيام، وصرنا نسمع القرآن عبر الأشرطة السمعية، وأقراص الكمبيوتر، وأثير الإذاعة والتلفاز، ونقرؤه من صفحات فاخرة مذهبية، تترزين بها مكاتبنا ومجالسنا، أما الكتب فالحصول عليها كالحصول على الماء، وربما وَجَدَ طَالِبُ الْعِلْمِ مَرَادَهُ مِنْهَا بِتَقَرُّةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ، بَلِ رُبَّمَا اضْطَرَّ عَلَى سِرْبِرِهِ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى وَسَادَتِهِ النَّاعِمَةَ لِيَقْلُبَ عَشْرَاتِ الْكُتُبِ الْمُحْفَوظَةِ فِي هَاتِفِهِ.

❖❖❖  
بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ الْحَارِثِيِّ عَصْرٌ يَسْمَى عَصْرَ النِّسْخِ، كَانَ فِيهِ نَاسِخُ الْكُتُبِ يُحَضَّرُ الدَّوَاةَ وَالْمَدَادَ وَالْأَقْلَامَ، وَيَجْلِسُ لَيْلًا عَلَى ضَوْءِ السَّرَاحِ الْقَدِيمِ، يَكْتُبُ الْعِلْمَ الْمُنِيدَ النَّافِعَ، إِنَّهَا مَشَاهِدٌ حَيَّةٌ مِنْ أَيَّامِ الْمَاضِي، تَتَخَلَّلُهَا نَفْحَاتُ عَطْرَةٍ مِنْ عَيْقِ التَّارِيخِ، تَرْبِطُهُ بِنَرَاتِ الْأَجْدَادِ قَلْبًا وَقَالِبًا، وَتَجْعَلُهُ يَعْمِشُ لِحَطَّاتِ عَاشِ الْأَوَّلُونَ مِثْلَهَا، فَكُنَّا هُوَ حَلْقَةٌ فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ، تَسْلُكُ الدَّرَجَ نَفْسَهُ، وَتَقْضِي الْحَطْلَى ذَاتَهَا. لَقَدْ أَدْرَكَ الشَّيْخُ ذَلِكَ وَعَاشِيَهُ عَنْ قَرَبٍ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ النِّسْخِ الَّذِي جَلَسَ عَلَيْهِ مِنْ سَبْقِهِ، وَاسْتَشْعَرَ جَلَالََةَ التَّرَاتِ وَعِظْمَتَهُ وَمَكَانَتَهُ، وَالْجُهْدَ الَّذِي بَدَّلَهُ الْأَبَاءَ لِيَصِلَ إِلَى الْأَنْبَاءِ، وَجَدْتُهُ مَرَّةً يَنْسَخُ كِتَابًا مَطْبُوعًا، فَرَأَى عَلَيَّ عِلَامَاتِ الْاسْتِغْرَابِ بِأَدِيَّةٍ. فَقَالَ: هَكَذَا تَعَلَّمْتُ أَنْ أَعْرِفَ قِيَمَتَهُ. قَلْتُ: وَكَيْ زَمَانَ النِّسْخِ. قَالَ: عِنْدَكُمْ، أَمَّا أَنَا فَلَا يَقْطَعُنِي عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَكُلَّ بَدِي. وَلَقَدْ كَانَتْ أَكْثَرَ مَطَالَعَاتِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، يَنْسَخُ وَيَقْرَأُ فِي أَنْ، حَتَّى خَبِرَ حَطُوطُ النَّسَاحِ وَالْعُلَمَاءُ فَكَانَ يَمَيِّزُ بَيْنَهُمَا كَمَا يَمَيِّزُ بَيْنَ آبَائِهِ وَأَقَارِبِهِ.

زُرْتُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ صَبِيحَةَ الْجُمُعَةِ ٦ شَعْبَانَ ١٤٢١هـ/ ٣ نَوْفَمْبَرِ ٢٠٠٠م فِي مَنَزَلِهِ الْوَاقِعِ خَلْفَ مَجْلِسِ (بَيْتِ الْبِرْجِ) فِي بَلَدَةِ الْمَضْرِبِ مِنْ شَرْقِيَّةِ عُمَانَ، كَانَ سَمِجًا بِشَوْشًا مُتَوَاضِعًا، حَتَّى لَقَدْ خَجَلْتُ مِنْ حَسَنِ تَعَامَلِهِ مَعْنَا، زُرْتُهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ بَعْدَهَا فَكُنْتُ أَجِدُهُ عَلَى الْحَالِ نَفْسَهَا: كُتُبٌ وَمَخْطُوطَاتٌ وَأُورَاقٌ، تَتَلَقَّى حَوْلَ شَيْخٍ وَقُورٍ: ذِي عِمَامَةٍ بِيضَاءٍ مَطْوِيَّةٍ إِلَى الْأَعْلَى، وَلِحْيَةٍ كَثَّةٍ مَهْبِيَّةٍ، كَأَنَّهَا اجْتَمَعَتْ فِي مَلَامِحِهِ أُصَالَةُ التَّرَاتِ الْعُمَانِيَّةِ وَعِرَاقَتُهُ.

كُنْتُ أَسْأَلُهُ فَيَجِيبُنِي دُونَ تَرَدُّدٍ، وَلَا يَبَالِي أَنْ يَدْخُلَ مَرَّةً تَلُو المَرَّةَ إِلَى مَكْتَبَتِهِ لِيَسْتَخْرِجَ مِنْ نَفَائِسِهَا مَا يُؤَيِّدُ جَوَابَهُ وَيَطْلُسُ غَلِيْلَهُ وَغَلِيْلَ سَائِلِهِ، وَرَبَّمَا تَحَرَّكَ فَضُولِي إِذَا رَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَثِيقَةً مَهْمَةً يَقْرُؤُهَا، فَلَا أَكَادُ أَطْلُبُهَا حَتَّى يَعْطِيَنِي نَسْخَةً مِنْهَا، وَمَا خَرَجْتُ يَوْمًا مِنْ عِنْدِهِ خَالِي الْوُفَاضِ.

أَرَانِي مَرَّةً حَتْمًا عُمَانِيًّا عَلَى ظَهْرِ مَخْطُوطٍ عِنْدَهُ: مُؤَرَّخًا فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهَجْرِيِّ، وَقَالَ: هَذَا مُؤَشَّرٌ حَضَارِي لَا بَدَّ أَنْ يَعْنِي بِهِ، كَانَتْ تَسْتَهْوِيهِ مِثْلَ هَذِهِ النَّوَائِدِ الشَّوَارِدِ، وَتَسْتَدُّ التَّبَاهِيَّ، فَيَجْمَعُهَا وَيَدُونُهَا، وَيَخْرِجُ مِنْ بَطُونِ الْمَخْطُوطَاتِ مَا أُنْمِىَ خَطَّهُ وَصَعِبَتْ قِرَاءَتُهُ، فَيُعِيدُ نَسْخَةَ خَشْيَةٍ ذَهَابِهِ، وَرَبَّمَا اسْتَعَارَ مَخْطُوطًا مِنْ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ أَوْ تِلْكَ لِيُقَارِنَ بِهِ مَخْطُوطَاتَهُ بِغِيَّةٍ تَصْحِيحِهَا، وَمَنْ تَأَمَّلَ مَكْتَبَتَهُ فَلَمَّا يَجِدُ مَخْطُوطًا فِيهَا لَمْ يَسْطِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ تَعْلِيْقَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ.

إِنَّهَا صَحِيحَةٌ طَوِيلَةٌ مَعَ الْكُتُبِ، وَخَبِرَةٌ عَمِيقَةٌ بِخَيَالِيهَا وَخَفَايَاهَا، وَلَهْفٌ شَدِيدٌ إِلَى تَتَبِعِهَا وَاقْتِنَاصِ طَرَائِدِهَا، لَا يَمُورُ عَنْهُ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي ذَاتِ مَرَّةٍ: أَنَا لَا أَعِيشُ دُونَ مَخْطُوطَاتِي!

سَأَلْتُهُ عَنْ شِعَارِهِ فِي الْحَيَاةِ، فَقَالَ:  
وَأَمَّا يُوْحِدَتِي أَنْسَتُ وَقَعْرَ بَيْتِي عَنْهُمْ لَزِمْتُ  
فَرَادَ أَنْسَى وَنَمَّا السَّرُورُ بَلْ زَالَ بَانَفَرَادِي الْخُدُورُ  
تِلْكَ كَانَتْ خِلَاصَةَ لِقَاءَاتِي مَعَهُ فِي سَطُورٍ مُوجِزَةٍ، رَبَّمَا تَوَجَّرَ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ مَعَالِمَ شَخْصِيَّةِ الشَّيْخِ سَالِمِ بْنِ حَمْدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْحَارِثِيِّ، وَمَلَاحِجَ سَمِيرَتِهِ وَعَطْلَانِهِ، الَّتِي بَدَأَتْ يَوْمَ الرَّابِعِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٢٥١هـ/ ٢٨ فَبْرَايِرِ ١٩٣٣م، وَلَمْ تَنْتَهُ بِغِيَابِ شَخْصِهِ الطَّاهِرِ فَطَهَّرَ يَوْمَ الْأَحَدِ ٢ رَبِيعِ الْآخِرِ ١٤٢٧هـ/ ٣٠-أَبْرِيلِ ٢٠٠٦م، بَلْ تَطَّلَّ بِإِذْنِ الْمَوْلَى نَبْرَاسًا لِلْأَجْيَالِ الْحَاضِرَةِ وَالْمَلَّاحِقَةِ.

وَإِذَا تَحَدَّثْنَا عَنْ الْأَجْيَالِ فَإِنْتَنِي أَكْتُبُ الْيَوْمَ عَمَّا هُوَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ سَالِمِ الْحَارِثِيِّ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أَدْقَى: عَمَّا هُوَ بَيْنَ جِيلِنَا وَجِيلِ الشَّيْخِ سَالِمِ الْحَارِثِيِّ.

أراني ختما  
عمانيا على  
ظهر  
مخطوطة من  
القرن العاشر  
الهجري فقال  
هذا مؤشر  
حضاري لا بد  
أن نعنتي به